آثار في خلق

خلد الماء

أو «أنف الطير»

أعجب الحيوان خلقاً: فهو يبيض بيضاً كالطيور والزواحف، ويرضع أولاده كالثدييات (ذوات الثدي) ويمشي في الماء واليابسة كالبرمائيات (الحيوانات البرية المائية)، وله منقار كمنقار البط، وأقدامه مشاة كأشواك من الطير، وله مسلك واحد منه يخرج برازه ومنه يتناسل ومنه يبيض.

***

الحيوانات الثديية أرقى ذوات الفقار. فهي أرقى من الأسماك ومن البرمائيات (الحيوانات البرية المائية)، وأرقى من الزواحف والزنبيات التي منها الانسان والقردة العليا [illegible] أرقى ذوات الثدي. أما المنقاريات التي يمثلها خلد الماء أو أنف الطير الذي [illegible] موضوع كلامنا في هذا المقال، فهي أدنى طبقات ذوات الثدي. وليس للواحد [illegible] ذوات الثدي من التضارب والاختلاف ما ليست تجده [illegible] في بقية طبقات الحيوان. فمنها الحيوانات التي تعيش على اللحوم ومنها دردارات صغرت أسنانها حتى خلت بالمرة من الفك، ومنها حشرية تأكل الهوام ومنها قوارض تأكل بأطراف أسنانها، ومنها [illegible]، وذوات الأظلاف جزء منها، وذوات الحافر جزء ثان، وذوات الخف جزء ثالث. ومنها حيوانات بحرية كالحيتان والخنان: تلد وترضع صغارها في [illegible] الماء، وفي هذه المجموعة التي منها الخفافيش والجرابيات (ذوات الكيس) يقف أرقى الخلق جميعاً أي الانسان العاقل يقف [illegible] بجانبه فإذا به الضئيل الذليل الى جانب الذباب والنمل، فإذا [illegible] فهو العملاق الجبار الثابت الأصل، المرتقي بفرعه في السماء.

فخلد الماء أو أنف الطير أن دنت طبقته في عالم الثدييات، والانسان وان تربع على قمة الهرم الذي يكون لبنائه طبقات ذوات الثدي، كلاهما ينطوي في عرف المواليديين تحت عنوان واحد هو «الثدييات». فالثدييات من الوجهة العلمية أرقى أمم الحيوان جميعاً. فإذا [illegible] من هذه

الأمر شكلاً هرمياً كان خلد الماء ، الذي يمثل شعب السلكيات أو ذوات السلك ، هو القاعدة ، وكان الانسان ، الذي يمثل شعب الرئبيات هو القمة . واذن يكون لنا نحن الآدميين صلة نسب بأنف الطير . ولكنه نسب لم يستبن العلم من علاقاته الا صفة ان هذا الحيوان يرضع صغاره ، كما ترضع الأمهات الآدميات اولادها . أما بقية العلاقات فقد درست متطورة في منظومة من الصور تدرجية في طبقات الثدييات تدرجاً متصاعداً نحو الكمال الانساني . أما الفواصل التشريحية والوظائفية والعقلية التي تفصل بين أنف الطير والانسان فيكفي لكي تعرف مقدارها الحقيقي ان تعرف انه بين هذا الحيوان وبينك هوة زمانية لا تقدَّر بألوف السنين ولا بمئات ألوفها ، ولكن بالملايين ثم الملايين من دورات الارض حول الشمس .

ولا يدلك على مقدار ما أثار هذا الحيوان من عجب المواليديين من شيء قدر ما يدلك ما وضع له من الأسماء فقد سمي مرة في دارج الكلام — Water mole او aquatic mole أي خلد الماء . وسمي مرة أخرى — Duckbill — ومعناه الحرفي « منقار البط » . ولكنني اخترت ان اسميه « أنف الطير » ؛ قال هذا نصف المواليديين . وعبارة أنف الطير أسلس في الاستعمال ، وفيها غرابة تجريها مجرى خاصاً يسهل معها تعيين دلالتها . وقد سمي في اللسان العلمي Platypus وهو لفظ مولد في اللاطينية وأصله من لفظين يونانيين : الاول معناه « مسطوح » والثاني معناه « قدم » وتأويله « مسطوح القدم » لأن أصابعه مشتبكة في أدمة او غشاء او وترة كتلك التي تراها في أقدام السوابح من الطير . وسمي أيضاً Ornithorhynchus وهو كسابقه لفظ مولد في اللاطينية وأصله من لفظين يونانيين : الاول معناه « طير » ، والثاني معناه « خرطوم او فنطيسة » . وتأويله « خرطوم الطير » أو « فنطيسة الطير » . ومن هنا خطر لي ان اسميه « أنف الطير » . ولعلي أكون قد وفقت في هذا الاستعمال الى ما يصلح ان يكون اسماً دارجاً لهذا الحيوان . ولا يفوتني أن أثقل على القارىء في هذا الموطن بعض الشيء بالكلام في مسألة لغوية . فاذا أردنا مثلاً ان نضع اسمين علميين لفظاً لا اصطلاحياً للعلميين عند الترجمة وليكونا عمدتنا في تصنيف السلكيات فماذا نعمل ؟ ينبغي لنا أولاً ان نعرف أنه من أوائل القواعد التصنيفية ان يكون للاجناس أسماء تجري في كل اسم من أسماء الأنواع ثم يعين النوع بصفة تميزه . فاذا قلنا مثلاً جنس السنانير وأردنا ان نفصل الأنواع التابعة له قلنا : السنور الأسد ، السنور النمر ، السنور البري ، السنور التالي ، السنور الأهلي وهكذا . وكل هذا احكام لتعيين الطبقات . فاذا أردنا مثلاً ان نضع اسماً علمياً في العربية يقابل لفظ Platypus ابتغى لنا ان نقول فيه « الصطودم » نحتاً من مسطوح + قدم : مسط[1]وح[2] + قد[3]م[4] = طودم ؛ واذا أردنا ان نضع اسماً علمياً في العربية يقابل لفظ Ornithorhynchus قلنا

«الشُّنْعبيرة» نحتاً من أصل إغريقي : أُرْنِثُورِنْكُس = يَنْقَليم ، ويكون الأول وزان «فَوْعَل» والثاني وزان «فَيْعَليل»

وإني لأعجل بالخروج من هذا البحث اللغوي وإن كانت لي بعض العذر في الإلماع اليه لأتخذه دليلاً على مقدار عناية الواليديين ببحث هذا الحيوان . ولكن هذا الحيوان بعاداته الحيوية قد استعصى درسه على الواليديين الدرس الكامل ، فهم إن عرفوا تشريحه ووظائف اعضائه وبخاصة أعضاءه التناسلية ، فانهم لم يعرفوا من أحوال حياته الا طرفاً يسيراً ، غير ان ذلك لا يحول دون ان نضع أمام القارىء في هذه الصفحات أخص أوصافه الظاهرة ، ونلمع الى ما نقف عليه من صفاته الحيوية

فالذكر البالغ من هذا الحيوان لا يتجاوز عشرين بوصة مقيساً من طرف الأنف الى نهاية الذنب . أما الأنثى فهي وإن شئت فقل أقصر قليلاً . ويتجاوز الأنف المنقار : فهو منقار منبسط والفكان : الأعلى والأسفل مكسوان بجلد ، فيشبه ما يشبه منقار البط . فاذا اطلعت عليه في جثة ميتة محنطة في متحف ، كان صلباً أسود اللون ، ولكن الغالب أن يكون ليناً مشبعاً بالرطوبات حال الحياة . ويحيط بهذا المنقار جليدة عارية حساسة ، تكون أشبه بقلنسوة تستوي عند قاعدته المنحنية . أما المنخران ، أي فتحتا الأنف ، فتستويان بقرب من نهاية ذلك المنقار الى الأمام

ولهذا الحيوان شعر كالثدييات كأنه فرو الخلد الأوربي ، وهو حيوان من النواحي ويتألف من شعرات صوف تكسو فروة سميكة تكون ملاصقة للجلد . وليس له أذنان ظاهرتان وعيناه صغيرتان جهد الصغر ، حتى انهما قد لا تريان بسهولة حال الحياة . اما اقدامه وبخاصة القدمين الأماميتين فمؤثرة أي يجمع بين أصابعها بوترة تنفرش على الأصابع ، كأنه طير من طيور الماء . وبهذا الجهاز يستطيع الحيوان السبح بسهولة .

ويقطن هذا الحيوان قارة الجنوب : أوستراليا ، ويقتصر وجوده فيها على أرجائها الجنوبية والشرقية وكل بعض جزيرة تسمانيا ، حيث يكثر وجوده في الأماكن التي تلائم حاجاته الحيوية . ومن أجل أن هذا الحيوان مائي العادات ، ولا يعيش غير المياه العذبة ، فنجده شديد العزلة متباعداً عن الظهور نفوراً ، وقلما يرى انهراً الا عند قدوم الغسق حيث يطفو على سطح الماء فيخيل اليك أن بالماء نتيئات سوداً تطفو رقابها على صفحته ولكن اذا حدث ما يزعج ، فإن هذه الرقاب تغوص في الماء توا كما لو ضربتها عصا سحرية

وعلى الرغم من أن هذا الحيوان يعيش عيشة صوارية (أي يكون أرسالاً وجماعات) اذا ما كان في الماء ، فانه في البر يعيش زوجاً زوجاً في انفاق يحفرها على مجاري الأنهار والغدران

الصغيرة وأوفق ما يلائمه من الأماكن حيث تتسع مجاري الماء ولا تعمق ؛ أي تكون ضحضاحاً قليل الغور . فاذا حفر الحيوان نفقاً جعل له مدخلين : أحدهما تحت مستوى الماء ، والثاني فوق مستواه مخفياً هذا في دغل من الأعشاب لئلا يُرى . ويجري النفق بانحراف إلى أعلى مبتدئاً من الماء مسافة طويلة قد تبلغ في بعض الأحيان خمسين قدماً في ثرى الشاطىء ، وينتهي بغرفة دثّرت بالحشائش الجافة وما شابهها من المواد وهنالك يفقس البيض عن الصغار وتربى . فاذا أراد أنثى الطير ان يبيض جاء الى هذه الغرفة ووضع بيضتين اثنتين ولا يزيد . وخلية البيضة مُجعّدة ومتقبضة (قشرة البيض) ذوي قرن أبيض اللون ، ولا تزيد على ثلاثة ارباع البوصة طولاً ، وعلى ثلثي البوصة عرضاً ، ويشبه بيض هذا الحيوان بيض الطير في كبر حجمه (صفار البيض) ، ولا يشترك في تكوين الجنين غير جزء صغير من هذا المح . أما الباقي فيختزن غذاء له في داخل البيض منه يستمد حتى تفقس عنه البيضة . فاذا خرج الجنين ألفيته مكفوف البصر أملط الجسم ، له منقار جد قصير كأنما هو فم مستدير تحوطه شفتان لحمية تساعده على امتصاص اللبن من الغدد الثديية في الأم

ويغتذي أبو الطير بأنواع مختلفة من صغار الحيوانات المائية كالحشرات والقشريات والديدان ويحصل على قوته بان يضرب منقاره في الطين اللازب أو الرمل باحثاً عن رزقه . فاذا حصل على شيء منه خزنه في جيبين شدقيين (كبعض السعادين) ثم أكله بعد ذلك بحسب رغبته

ومن عجائب هذا الحيوان ان كفيه الاماميتين من أخص أجزائه الجسمانية التي تساعده على السبح والغوص في الماء . ومن الظاهر أن هذا الحيوان قلما يغادر الماء الا ليلجأ الى نفقه ؛ فاذا أوى الى النفق التف على نفسه فلاح كأنه كرة كاملة . أما اذا حاول المشي على الأرض كان متثاقلاً ضعيف الحركة ، على الضد مما تراه اذا كان في الماء . ويصيده سكان أوستراليا الاصليون بأن يحفروا حفراً على مسافات متباعدة فوق النفق حتى يصلوا الى الغرفة حيث يجدونه

ولكنّ الأقدار قد شاءت أن يكون لمعرفة علماء المواليد بهذا الحيوان أقصوصة غريبة تتفق كل الغرائب فيه ، فان هذا الحيوان كان من أول الحيوانات التي عرفها أهل الذكر من الباحثين في أوربا . ولكن على الرغم من ذلك ظلت حياته لغزاً [illegible] عليهم . فان مرآه كانت قصية بعيدة عن الأقطار المعمورة ، وما كان يراه غير الوطنيين الذين يرون فيه شيئاً عادياً بعيداً عن أن يثير فيهم فكرة أو يلهمهم حقيقة . أما الذين أسعدهم الحظ بأن يروه من أهل أوربا ، فكانوا يؤخذون بما يلاحظون في خلقه من تنافر الطبائع واختلاف العناصر ، ويصفونه بألفاظ لا تدل على شيء إلا على ما أحدث مرآه في نفوسهم من شعور بالتناقض ، فمنهم من سماه « الأنثى الطير » ومنهم من دعاه « لغز الحياة » . ولم يقف أمر التعجب من هذا الحيوان عند

الرجل العادي ، بل إن خاصة أهل العلم لما سمعوا أن هذا الكائن الذي له جسم « القندس » إنما هو حيوان ثديي يرضع صغاره ، وأن له منقاراً كمنقار الطير ، وأنه يلقي بيضاً كالزحافات البيوض كانت هذه الحقائق وحدها كافية لأن تبعث فيهم حيرة شديدة حتى لقد أنكر بعضهم رواية المنقار وشك بعضهم في أقدامه المكففة وأصابعه المخلبة . أما أنه يبيض فرواية [illegible] عهداً طويلاً على أنها من نسج الخيال .

ومن الأشياء التي يصح أن تتخذ دليلاً على أن الانسان كثيراً ما ينخدع عن الحقائق لغرابتها وإن كان عالماً متفقهاً ، أن باحثاً استطاع أن يحصل على أنثى من [illegible] رضيعها ، فاحتفظ بها وبصغيرها زمناً ووصف ما رأى من تصرفها في الأسر وعرض شيئاً من عاداتها النهارية والليلية ، ولكنه مع ذلك لم يصدق أن هذا الحيوان يبيض [illegible] وقام باحث آخر عرف قارة الجنوب وجاب أقطارها ودرس [illegible] الكثير من حيواناتها ونباتاتها وكان بطبعه شديد الشك في كل شيء حديد البصيرة ثاقب النظر ، فكتب عن [illegible] مما قال فيه : إن أهل القارة الجنوبية الأصليين قد دأبوا على حيلة [illegible] هذا الحيوان [illegible] بأنهم يعتقدون أنه يبيض ، وأن صغاره تخرج من بيض .

أما التاريخ الحقيقي لمعرفة حقيقة هذا الحيوان فقد [illegible] المنية وكان ذلك في أول سنة عقد فيها المجمع البريطاني دورته السنوية في كندا [illegible] كانت هذه الدورة أول دورة يعقدها المجمع في خارج الجزر البريطانية [illegible] في مدينة مونتريال وصلت برقية [illegible] التاريخ الطبيعي [illegible] ببرقية يطالب فيها تفصيلاً [illegible] جهة من كندا فما رجع وجد برقية في إنتظاره [illegible] أن [illegible] حالاً [illegible] ليكون [illegible] ملامحها وبدت على وجهها إمارات العجب [illegible] قرأت النص الآتي : « [illegible] »

وجوبة الأمر أن الجمعية الملكية البريطانية [illegible] كرة الأرض وجاب [illegible] إلى قارة [illegible] فلما وصل تلك القارة عكف على مهمته وكان له الشرف [illegible] أن [illegible] هذا الحيوان الذي هو في الحقيقة بقية باقية من آثار حيوانات [illegible] منذ دهور سحيقة في القدم ، إنما يبيض [illegible] على صفاته الثديية الثابتة . ولقد رغب [illegible] الجمعية الملكية أن يبلغوا هذا الخبر الهام لأهل العلم ، فأرسلوا تلك البرقية التي تلقتها [illegible] الخبر ولهذا الترتيب .